# مقدمة

## نهاية قرن

لا يزال يوم الأول من كانون الثاني من عام ١٩٥٠ حياً في ذاكرتي، حيث إن هذا التاريخ، بحد ذاته، يمثّل رقماً مميزاً لانتهائه بالصفر: كنت آنذاك في الحادية عشرة من عمري، وكنت جالساً عند شجرة عيد الميلاد، التي كنا نطلق عليها أيضاً اسم شجرة عيد رأس السنة. حينها تساءلت وبشيء من القلق إذا كنت سأبلغ اليوم نفسه من العام ٢٠٠٠. تراءى لي ذلك التاريخ بعيد المنال، إنه نصف قرن! كنت متيقناً أن هذا التاريخ لن يأتي إلاّ وأنا في عداد الأموات. وها أنا قد أدركت هذا اليوم، مرّت الأيام كلمح البصر. وأراني أسأل نفسي، شأن كل من شهد هذا القرن: ما هو الانطباع الذي خلّفه في ذهننا القرن المنصرم؟ لقد تعمّدتُ استخدام لفظة (قرن)، مع أننا أصبحنا في الألفية الثالثة، فأحداث الألفية الثالثة تبقى مجهولة بالنسبة لنا، ولكننا نستطيع أن نلمّ بأحداث القرن السابق.

يدعونا الملحق الأدبي للصحيفة الأدبية اللندنية التايمز في كل عام لاختيار (كتاب العام)، و قد دعانا سابقاً مع اقتراب عام ١٩٩٩ من نهايته لترشيح (كتاب الألفية الماضية). بدا لي الموضوع في حينها تافهاً لدرجة أني لم آبه بإرسال أي جواب. لكن بالمقابل، عندما نثير موضوع (قرن ما)، فإن للكلمة أثرها في الأذهان، إنها تشمل حياتنا وحياة آبائنا، وعلى أكثر تقدير حياة أجدادنا. فكلمة قرن تنبض في ذاكرة الأفراد.

لست أدّعي أنني (اختصاصي) بأحداث القرن العشرين أو ملمّ بها، كما هو حال المؤرخين، وعلماء الاجتماع، وعلماء السياسة، ولا أطمح لأن أكون كذلك. فالكل على اطلاع بخطوطه العريضة، التي نطالعها على صفحات الكتب. ما يشغلني هنا هو التفسير الحقيقي للوقائع، التي تأتي غامضة في كثير من الأحيان. لا أريد أن ألغي دور المؤرخين، الذين يقومون بالمهمة على أكمل وجه، ما يهمني هو الوقوف عند هذا

التاريخ الذي يدونونه وتأمّله. فأنا أنظر إلى هذا القرن كشاهد عيان يعنيه الأمر، وككاتب يحاول فهم الزمان الذي عاش فيه، لا (كاختصاصي).

ويتدخل قدري الخاص ليلعب دوراً محدوداً من حيث الزاوية التي اخترتها لدراسة أحداث هذا القرن، وذلك من خلال منطلقين: الأول ظروف حياتي الشخصية، والثاني مهنتي التي أمارس. باختصار، لقد ولدت في بلغاريا وترعرعت في هذا البلد حتى عام ١٩٦٣، الذي كان آنذاك يرزح تحت سيطرة النظام الشيوعي؛ ومنذ ذلك الحين انتقلت للعيش في فرنسا. ومن ناحية أخرى، فإن عملي يقتضي دراسة تطورات الثقافة، والأخلاق، والسياسة، وتحديداً تاريخ الأفكار.

وخلصْتُ إلى أن هوية الفرد تلعب دوراً هاماً في اختيار الحدث الأهم في قرن ما، ذلك الحدث الذي يبلورِ مجرى هذا القرن. فبالنسبة للفرد الإفريقي مثلاً، يشكّل الاستعمار وتحرر البلاد الحدثين السياسيين الفاصلين. حتى بالنسبة للفرد الأوربي -سأتناول هنا القرن العشرين في أوربا بشكل خاص، وسأكتفي بالتلميح إلى أحداث خاطفة في باقي القارات- فإن الباب مفتوح على مصراعيه. هناك من يقول إن الحدث الأهم يتمثّل في (تحرير المرأة): حيث إنها دخلتْ معترك الحياة العامة، وتمكّنتْ من السيطرة على عملية الإنجاب (بتناولها حبوب منع الحمل)، وفي الوقت نفسه، انتشار القيم التقليدية (التي تتناول أمور المرأة)، بما فيها عالمها الخاص وأثرها على حياة الجنسين. قد يولي بعضهم الآخر أهمية لمواضيع أخرى، كالانخفاض في نسبة الوفيات القاسية لدى الأطفال، أو ارتفاع في متوسط العمر في البلدان الغربية، أو التباين في جداول الإحصاء السكاني. ويذهب آخرون إلى ترجيح كفة التطور التقني الذي كان له الأثر في تحديد منحى هذا القرن، كهيمنة الطاقة الذرية، وفك رموز علم الوراثة، وتبادل المعلومات بشكل إلكتروني، وأخيراً التلفاز.

إنني أؤيد جميع هذه الآراء، فتجربتي الخاصة لا تضيف أي تفسير لهذه المواضيع؛ بل إنها تدفعني لوجهة أخرى، مختلفة تماماً. إن الحدث الرئيس بالنسبة لي، هو ظهور آفة جديدة، نظام سياسي مبتكر، ألا وهو نظام الشمولية (الحكم

المطلق) الذي من خلاله يتلاشى الفرد، ليذوب في بوتقة المجتمع والدولة. وقد سيطر هذا النظام في أوجه، على جزء كبير من العالم؛ ونراه اليوم قد اندثر من أوربا، ولكنه لا يزال موجوداً في بعض القارات؛ حيث تبقى آثاره عالقة إلى يومنا هذا. وأريد هنا أن أتناول العبر التي استنتجناها من المواجهة العدائية التي نشأت آنذاك، بين نظام الشمولية والنظام الديمقراطي.

لا يمكن أن ندّعي أن القرن العشرين خنع تحت وطأة هاتين القوتين العظمتين، فذلك يستدعي توزيعاً لقيمٍ قد لا تروق للجميع. يكمن أصل المشكلة في أن أوروبا مرّت بنظامين شموليين: ألا وهما النظام الشيوعي والنظام الفاشي: بدأ الأمر بصراعهما الفكري العنيف، ثم ما لبث أن انتقل إلى ساحات القتال. و في كل مرة كان أحدهما يلقى تأييداً من الدول ذات النظام الديمقراطي، حيث كان يتحالف تياران منهم ضد التيار الثالث؛ ففي بادئ الأمر، اتفق الشيوعيون كافة على تنحية أعدائهم (وكانوا من الرأسماليين)، وظهرت كل من الديمقراطية الحرة والفاشية على أنهما شكلين متطورين ومتطرّفين للمرض نفسه. وعلى الرغم من ذلك، وفي منتصف الثلاثينات، وبشكل أدق خلال الحرب العالمية الثانية، تغير الوضع، فتحالَفَ كل من النظامين الديمقراطي والشيوعي ضد الفاشية. وأخيراً وفي السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الحرب، وتلك التي تلتها، تم الاتفاق على اعتبار كل من الفاشية والشيوعية نظامين تابعين للنظام الشمولي، ويعود أصل المطالبة بتلك التسمية للفاشية الإيطالية. وأراني سأتطرّق فيما بعد للتعريفات و التسميات. وكما يتضح من خلال هذا السرد للوقائع، أن هذا التصنيف بنظري هو الأوضح.

إن اختياري للحدث المميّز هو الذي يحدد بشكل ملموس، الموضوع الذي أتناول. فمن حيث المكان، سأكتفي بعرض ما جرى في القارة الأوربية، التي أتيت منها، وسأتناول أبرز الأحداث التي جرت فيها، مما أثّر على الحقبة الزمنية المحورية، وسأتطرّق للأحداث التي جرت بين عامي ١٩١٧ و١٩٩١ بشكل رئيسي، وفي بعض الأحيان أجدني مضطراً للرجوع إلى فترة تسبق هذا التاريخ، أو للوقوف عند العقد الأخير من هذا القرن. والأهم من هذا كله، سأكتفي بمظهر واحد من الحياة العامة،

متجاوزاً باقي المظاهر: كالحياة الخاصة، والفنون، والعلوم أو حتى التقنيات، علماً أن عملية البحث عن المعنى لن تكون مجانية: فمبدؤها الاختيار والربط- والخيارات هنا كثيرة ومتعددة. إذاً المعنى الذي أطرح من وجهة نظري لا يستبعد وجهات نظر الآخرين، بل يضاف إليها في أفضل الأحوال.

سأبدأ بطرح موضوع نظام الشمولية، وهذا سيكون له أثر مباشر، حيث إنه سيلغي الفكرة التي كانت تراود كبار المفكرين في القرون المنصرمة التي تقول إن العالم يعيش في تقدّمٍ مستمر، فقد ثبت أن نظام الشمولية هو ابتكار سياسي جديد عُرف به القرن العشرون، ولكنه في الوقت نفسه مرض خطير؛ فالحكم المطلق أو نظام الشمولية، هو نظام جديد، ثبت أنه أسوأ من التيارات التي سبقته. إلاّ أنّ هذا لا يعني بالضرورة أن البشرية تسير إلى الهاوية بسببه؛ فالتاريخ يسير على غير هداية، ولا يحكمه أي قانون، مهما بدا بسيطاً.

لقد بنيتُ الموضوع الأول من بحثي على الصراع القائم بين النظامين: الشمولية والديمقراطية، المشابه للصراع الذي دار بين النظامين المتباينين الشيوعية والنازية. أما موضوع بحثي الثاني، فإنه متعلّق بالأول من حيث انتماء هذه الأحداث إلى الماضي، والتي لا يستمر وجودها إلاّ في الذاكرة. وهذه الأخيرة لا تكتفي بالتسجيل الآلي للأحداث، بل إن لها أشكالاً ووظائفَ تختار من خلالها ما تسجله؛ لذا فهي تُبنى على مراحل، قد تخضع كل منها إلى اضطرابات نوعية، كما يمكن أن تتأثر بعوامل مختلفة، تؤدي بها إلى مواقف خُلُقية متناقضة. فهل نستخلص من كل ذلك أن الذاكرة هي بالضرورة أمر إيجابي في كل الأحوال، وأن النسيان لعنة مطلقة؟ وهل يساعدنا الماضي على إدراك الحاضر بشكل أفضل، أم أنه يعمل على طمس معالمه في أغلب الأحيان؟ وهل يمكن الاستفادة من أساليب الماضي؟ وهل يجب إخضاع بصمات القرن بدورها لفحص دقيق؟

وأخيراً حتى لو اضطرني الأمر إلى الوقوف طويلاً عند هذا الحدث المركزي، لا بد لي أيضاً من الاطلاع على الماضي القريب، تلك الحقبة الزمنية التي لحقت سقوط جدار برلين، لمعرفة المزيد وعلى ضوء التعاليم المستخلصة من التحليل

السابق. ترى هل سيعم الخير بعد قهر الظلم؟ أم أن هنالك مخاطر جديدة تترصد الأنظمة الديمقراطية الحرة؟ والمثل الذي أقصده، إنما أستنبطه من الحاضر القريب الذي عايشناه، الحرب التي اندلعت في يوغسلافيا و أخصّ بالذكر هنا أحداث الكوسوفو. إن ماضي نظام الشمولية، وطريقة تداخله في ذاكرتنا، وأخيراً الأضواء التي يسلّطها على حاضرنا.. تلك هي المراحل الثلاث التي سأبني عليها بحثي.

إلى جانب دراسة عوامل الخير والشر الناتجة عن هذا التيار السياسي المهيمن على القرن، آثرتُ إدراج أمثلة لمصير بعض الأفراد الذين عانوا الكثير ولكنهم صمدوا أمام نظام الشمولية هذا. لمَ أبنِ اختياري لهؤلاء الرجال والنساء لكونهم مختلفين عن غيرهم، فهم ليسوا أبطالاً، ولا قديسين، ولا أبراراً؛ إنهم أناس غير معصومين عن الخطأ، تماماً مثلك ومثلي. كان طريقهم مأساوياً، ومعاناتهم الجسدية متشابهة، ولذا جاءت كتاباتهم تجسيداً لتجربتهم المريرة المفعمة بالألم من هذا النظام، حيث لم يكن ينقصهم الفكر الثاقب ولا الموهبة ولا البلاغة لتدوين آلامهم، ومع ذلك لم يستغلّوا هذا الوضع ليلعبوا دور الواعظ. إنهم ينتمون إلى جنسيات مختلفة، فمنهم الروسي، ومنهم الألماني، والفرنسي، والإيطالي.. ومع ذلك فإننا نشعر وكأنهم من أسرة واحدة. وتتميّز كتاباتهم بشعور واحد، مع بعض التباين، الذي يتجسّد في الفزع الذي يقف عند حدود الشلل؛ كما سيطرت عليها فكرة واحدة، لم أستطع أن أجد لها أنسب من هذا التعبير:"الفلسفة الإنسانية العصيبة".

تبقى صور كلٍ من "فاسيلي غروسمان **Vassili Grossman**" و"مارغريت بوبر-نيومان Margarete Buber-Neumann" و"دافيد روسيه David Rousset" و"بريمو ليفي Primo Levi" و"رومان غاري Romain Gary" و"جيرمين تيون Germaine Tillion" حاضرة في أذهاننا لشحننا بالأمل، وإخراجنا من دائرة اليأس.

ترى ما هو الانطباع الذي سنحمله عن هذا القرن؟ و هل سنطلق عليه تسمية "قرن ستالين وهتلر"؟ عندئذٍ، قد نمنح هذين الجلاديَن شرفاً لا يستحقانه، فلا داعي لتمجيد مثل هؤلاء المجرمين. أم ترى هل سنسميه بأسماء أشهر أدباء ومفكري العصر الذين سحرونا بكتاباتهم لدرجة أثارت فينا، نحن قراءهم، الحماس والجدل،

وإذ بنا قد ضللنا بفضل آرائهم الخاطئة. ولكن هيهات، إنه لمن المؤسف حقاً أن ننقل لحاضرنا هفوات وأخطاء الماضي. إني أفضّل شخصياً أن نخلّد في ذاكرتنا، الوجوه المضيئة لهؤلاء الأفراد الذين قُدِّر لهم أن يعيشوا مأساة هذا القرن المظلم، والذين ما زالوا يعتقدون، لصفاء ذهنهم، أن الإنسان يجب أن يبقى هدفاً للإنسان، مهما كلف الأمر [١].

(١) وردت بذرة هذا المؤلف ضمن رواية مختصرة، نُشرت عام ١٩٩٥، بعنوان "سوء استخدام الذاكرة" ، أتقدم بالشكر لدار النشر Arléa التي أتاحت لي الفرصة باقتباس بعض المقاطع.

obeikandl.com